**عمارة الارض ماذا ينقصها**

**بقلم / السنوسي محمد السنوسي**

**كاتب إسلامي**



**يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى خلق الإنسان لغاية واحدة، هي عبادته سبحانه، وحده لا شريك له، فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات:56).**

**وليس صحيحا ما يتصوره البعض من أن العبادة مقصورة على بضع كلمات يتمتم بها صباحا ومساء، أو بضع ركعات يؤديها على مدار اليوم والليلة، أو أن العبادة هي الصلاة والصيام والزكاة والحج فحسب، فيما يعرف بأركان الإسلام وشعائره التعبدية؛ فهذه العبادات -على أهميتها- ليست إلا الأركان والعمد الأساسية التي يقوم عليها بناء الإسلام الضخم، المتشعب؛ أصولا وفروعا، كليات وجزئيات، أركانا وفضائل.**

**عبادة وعمارة**

**فالعبادة، كما شاع في تعريف الإمام ابن تيمية لها، اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة. ووظيفة المسلم في الحياة، طبقا لهذا التعريف، تشمل أداء الفرائض وإقامة الشعائر، كما تشمل عمارة الأرض وحسن القيام على ما أودع الله فيها من ثروات وخيرات، ومن نبات وجماد وحيوان مسخر ومذلل للإنسان.**

**وقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى على لسان نبي الله صالح، حين قال لقومه ثمود: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ  إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} (هود:61).**

**وفي كتابه المهم «مشكلات في طريق الحياة الإسلامية» حرص الشيخ محمد الغزالي على تجلية هذا المعنى الشامل لمفهوم العبادة، وعلى إزالة ما لحق به من غبش، فقال: «عندما ننظر إلى العبادات نجد أداءها في اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة، ونجد تعاليمها تستغرق صفحة أو صفحتين، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعا، والمجال رحبا لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها، وتسخيرها كلا وجزءا لخدمة الدين. وكل جهد يبذل في ذلك يسمى شرعا: عملا صالحا، وجهادا مبرورا، وضميمة إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله: {فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} (الأنبياء:94)» (1).**

**وتصحيحا للتصورات الخاطئة التي تظن «العبادة» محصورة داخل جدران المسجد، ينبهنا الشيخ الغزالي قائلا: «من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالا بالدنيا، عجزة في الحياة. والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي؛ ويصنعها الغواص في بحره، والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره؛ يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منه أداة لنصرة ربه وإعلاء كلمته. وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظا عندما خبنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال ومظاهر تقام» (2).**

**وهكذا يتسع مفهوم «العبادة» ليشمل كل نشاطات الإنسان في الحياة؛ من قيام في المحراب، أو قيام في المصنع أو المتجر أو المعمل!**

**الحديد في القرآن**

**بعد أن قرر القرآن الكريم أن «استعمار الأرض» وتنميتها والتفاعل مع السنن والقوانين الكونية المبثوثة فيها، مطلب إسلامي، وإحدى غايات الخلق الإنساني؛ لفت في كثير من آياته وقصصه -كما في قصة ذي القرنين- إلى الأدوات التي يستعين بها المسلم في عمارة الأرض، وعلى رأسها مادة «الحديد»، والذي سميت باسمه إحدى سور القرآن، هي «سورة الحديد».**

**بل كان لافتا أن يمتن الله سبحانه على خلقه بأنه أرسل إليهم الرسل، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوموا بالعدل، كما أنزل الحديد ليستفيدوا منه في معاشهم ويدافعوا به عن أنفسهم؛ فقال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ  وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ  إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحديد:25). وقد أشار المفسرون إلى أن الحديد خص بالذكر؛ لأن فيه «مصالحهم؛ ومعايشهم؛ وصنائعهم؛ فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها؛ أو ما يعمل بالحديد» (3).**

**وفي مقال مستفيض لبعض الباحثين في مجال الإعجاز يوضح أن تعبير القرآن للفظ «الإنزال» عن الكتاب وعن الحديد، هو حقيقي، ليس مجازيا؛ فكما أنزل الكتاب من السماء إلى الأرض، كذلك الحديد. وبين أن هذا المعنى حقيقة علمية لم يتوصل إليها العلماء إلا في العقود المتأخرة، حين وجدوا أن الحديد الموجود في الأرض، والذي يشكل ‏35.9%‏ من كتلتها، لابد وأنه قد تكون في داخل عدد من النجوم المستعرة، مثل العماليق الحمر‏,‏ والعماليق العظام، والتي انفجرت علي هيئة المستعرات العظام، فتناثرت أشلاؤها في صفحة الكون ونزلت إلى الأرض على هيئة وابل من النيازك الحديدية‏؛ وبذلك أصبح من الثابت علميا أن حديد الأرض قد أنزل إليها من السماء‏,‏ وأن الحديد في مجموعتنا الشمسية كلها قد أنزل كذلك إليها من السماء‏؛‏ وهي حقيقة لم يتوصل العلماء إلى فهمها إلا في أواخر الخمسينيات‏,‏ من القرن العشرين‏,‏ وقد جاء ذكرها في «سورة الحديد‏» (4).**

**فأي دلالة أعظم على ضرورة الاستفادة من ثروات الأرض وخيراتها، نباتات ومعادن، من أن القرآن الكريم يسمي إحدى سوره بعنصر هو من أهم عناصر المعادن، ويدخل في الصناعات الخفيفة والثقيلة، وله فوائده في السلم والحرب، إضافة إلى كونه منزلا من السماء!**

**من تجربتنا الحضارية**

**حينما شرف الله سبحانه العرب بأن جعل فيهم مبتدأ ختام رسالاته، ومنهجه الذي ارتضاه للعالمين إلى قيام الساعة؛ فإنهم لم يكونوا أصحاب تجربة حضارية، ولم يعرف لهم تاريخ في الصناعة أو الزراعة؛ اللهم إلا بعض الأمور البدائية التي تتناسب مع بساطتهم في المعيشة.**

**لكن العرب انطلقوا بالإسلام، وبما فيه من قيم تحث على العلم وتجعله فريضة، ومن مفاهيم قرآنية عن تسخير وتذليل ما في السموات والأرض للإنسان.. انطلقوا يجوبون الأرض، وينقبون عن السنن والقوانين المخبوءة، ويبحثون عن الحكمة أينما وجدت، ويستفيدون من تجارب السابقين وخبراتهم، فيما هو محل لتناقل الخبرات والمعارف.. حتى استوعبوا علوم الحضارات السابقة، ونقحوها وغربلوها، وأضافوا إليها؛ ونقلوها من طور النظريات والمشاهدات والتخمينات إلى طور الحقائق المؤكدة بالتجربة والاختبار، بعد الحذف والإضافة.**

**فامتازت حضارة العرب في إسبانيا، على سبيل المثال -كما يرصد «غوستاف لوبون» في شهادة منصفة- بميل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشأوا في كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيماوية والطبية بنجاح.. ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك؛ فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسائج والجلود والسكر إلى إفريقية والشرق، بواسطة تجار من اليهود والبربر. وبرع العرب في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات.. وأدخلوا إلى حقول الأندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز.. وأصبحت إسبانيا جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الفنية. ووجه العرب نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون (5).**

**لم يكن أمام المسلمين سبيل آخر، غير هذا الجهد العلمي الشاق؛ الذي أضاف للإنسانية الكثير، وأسس للمسلمين حضارة زاهرة؛ لأن الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة للبشرية لا يحسن بها إلا أن تكون نموذجا علميا ناجحا مبدعا في الحياة، كما هي نموذج فريد في عالم القيم والأفكار.. وذلك لسببين:**

**الأول: حتى تقيم من نفسها نموذجا على أن دينها لا يخاصم الحياة ولا يزدريها (كما يتهم الإسلام الآن!)، بل هو يتفاعل معها ويفعلها لخدمة المنهج الإلهي؛ في إقامة العدل، وإحقاق الحق، ونصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم؛ ولا يمكن تحقيق ذلك ويدها ليست العليا في مجالات الحياة!**

**الثاني: حتى تدافع عن نفسها ضد من يتربصون بالحق وأهله، الذين في مصلحتهم أن يغيب العدل وينتشر الظلم، وتنعدم المساواة وتترسخ الفوقية والطبقية؛ فإذا كان التدافع بين الحق والباطل سنة قائمة باقية، فإن الحق لن يستطيع أن يدفع عن نفسه ويدُه مغلولة بالفقر والجهل والمرض، وأهله يتسولون الفتات والدواء من موائد الآخرين ومصانعهم!**

**ماذا ينقصنا؟**

**أمام هذا الواقع الذي نعيشه، والذي يخبرنا بأن أمة الإسلام لم يعد لها مكان في عالم الإبداع والإنتاج، وأن جامعاتها خارج نطاق المنافسة، ولم يحصل العالم العربي على أي مكان في الترتيب بين أول مائتي جامعة على مستوى العالم، حسب التقرير الذي أصدرته مؤسسة «تايمز»، المتخصصة في شؤون الجامعات ومؤسسات التعليم العالي، لعام 2016/ 2017م، وهو أحد أهم التقارير الدولية التي تقيم جودة التعليم في الجامعات (6).**

**أمام هذا الواقع المرير لابد أن نتساءل: ما الذي ينقصنا؟ خاصة أن العالم الإسلامي -على العكس من موقعه في قوائم الإبداع والإنتاج- يحصد المراكز الأولى في امتلاك الثروات الطبيعية والمعدنية، وفي تمتعه بالأنهار والمحيطات والأراضي الخصبة الصالحة للزراعة، وفي حيازة الأيدي العاملة، وتوافر أعداد كبيرة من الشباب بين سكانه.**

**إذن، لابد أن نبحث بعمق عن: ماذا ينقصنا لكي نزيل الفجوة الحاصلة بين الإمكانات المادية الهائلة، والمواقع المتأخرة التي نحصدها في عالم الإبداع والإنتاج؟!**

**وأتصور أن العلاج يأتي -أولا- من تصحيح التصور الخاطئ لمفاهيم الزهد والتوكل والتعفف؛ لندرك أن الدنيا إذا كانت محلا لإقامة الدين، ومزرعة للآخرة؛ فلا يمكن الانعزال عنها. وأن حديث النبي  " صلى الله عليه وسلم" ، الذي رواه أحمد وغيره عن أنس: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها»، ينبغي أن يكون دستور المسلم في حياته العملية. وأن قوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ  وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا  وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ  وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ  إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص:77)، هو قانون يكفل له علاقة متوازنة بين حاجات الروح ومتطلبات الجسد، من غير أن تجور إحداهما على الأخرى.**

**كما علينا -ثانيا- أن نطور من مناهج وأساليب التعليم، بحيث نربط المادة النظرية بالتطبيق العملي، ونجعل التعليم يواكب حاجات سوق العمل، حتى لا يحدث انفصال بينهما؛ فلقد «أصبحت ضرورة ارتباط المنظومة التعليمية بالمنظومة التنموية أمرا بالغ الأهمية؛ وهو نقطة الانطلاق في أي عملية للإصلاح» (7).**

**ومن ناحية ثالثة، ينبغي العمل على تحقيق التكامل بين الدول الإسلامية فيما يتصل بالثروات الطبيعية، وتبادل الخبرات البشرية.**

**ورابعا، يجب العمل على توطين التكنولوجيا في بلادنا، وأن ننتقل من مرحلة الاستيراد والتكديس لمنتجات الحضارة إلى مرحلة البناء والإنتاج؛ فكما يقول مالك بن نبي: «البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس؛ ولنا في أمم معاصرة أسوة حسنة. إن علينا أن ندرك بأن تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة» (8).**

**ومن الصعب أن يتم ذلك دون أن نتحلى بالاستقلال الحضاري، والرغبة الجادة! ودون أن نجمع شتات العقول والمبدعين العرب والمسلمين، ونوفر لهم عوامل التفرغ والنجاح والإنتاج.**